عبقرية الشباب

بقلم الأستاذ عباس محمود العقاد

إذا كانت هناك حصة من العبقرية يشترك فيها جميع الناس فتلك هي حصة الشباب

كل شاب عبقري على نحو من الأنحاء . وكل عبقري شاب على معنى من أرفع معاني الشباب ، لأن الشباب والعبقرية يتشابهان في خصال كثيرة : يتشابهان في فيض الحياة وغزارة الشعور وغنى الروح وثقة الخلود ، فكل شاب عنده من الحياة والشعور والثروة الروحية واليقين بالدوام وبعد الفناء ما ليس يلازمه وهو في ادبار الكهولة أو عجز الشيخوخة ، وكل شاب يملك الأريحية التي لا تضن بالعطاء ، لان الضنانة لا تكون مع الشعور بالوفر والزيادة والاقبال

وكل عبقري عنده من فيض الحياة ما يربي على حاجته ويتناول حاجات الالوف من الناس ، ومن هنا اشتغال العبقريين بالاصلاح والاثارة والتثقيف والتجميل ، ومن هنا عملهم لما بعد الحياة أو عملهم للخلود لانهم يعيشون في أعمار تتجاوز أعمار الافراد

ويتشابه الشباب والعبقرية في طول الرجاء ، لان الشاب والعبقري يعملان عمل الراجين وان بدرت منهما أقوال اليائسين ، وقد ييئسان ولكنه يأس قوة واستعداد وليس بيأس ضعف وتسليم ، ويظل الشاب يرجو بعد كل خيبة ويشرع في آمال الحياة بعد كل لحظة ويغالب العوائق بعد كل اخفاق وهزيمة ، ثم يتغير هذا بعد الكهولة فيقل الرجاء ويكثر الحذر وتقل الثقة بالدنيا ويكثر الخوف من الموت ، وتلك هي علامات الفناء ـ وكذلك العبقري يعرف الناس والدنيا ويعمل لهم ولها كأنه لا يعرفهم ولا يعرفها . كما قال المعري :

وأعجب مني كيف أخطىء دائما على أنني من أعرف الناس بالناس

لان المعول هنا على غزارة النفس لا على المعرفة . فليس جهل العبقري بالناس هو الذي يدعوه الى حسن الظن بمصيرهم والمثابرة على اصلاحهم وتثقيفهم ، وليس علم الانسان العادي هو الذي يدعوه الى سوء الظن بهم ويصرفه عن واجب الاصلاح والتثقيف . كلا ! ان العبقري يصلحهم لانه غني النفس بهدى من غناه وفيض حياته كما يهدي الشباب ، وان الانسان العادي لن يصلحهم لانه لن يملك ذلك الغنى ولا ذلك الفيض ، ولكنه يتلقى صدقات الشعور من غيره ولا يعطي الآخرين هذه الصدقات

فاذا رأيت العبقرى في علاجه لشؤون الناس والدنيا ، رأيت الشـاب في رجائه وغروره وانخداعه ، لانه شاب في الحقيقة بما عنده من ذخيرة الحياة

ان الطبيعة تغنى الشباب بقوتها ورجائها ، لان الشباب هو العمر الذى تخلق فيـه الحياة حياة أخرى وتزيد ثروتها من الابناء والاعقاب والاجيال

وإن الطبيعة تغني العبقرية بقوتها ورجائها ، لان العبقرية هي القدرة التي تخلق بها الحياة حياة أخرى في عالم المستقبل الخالد ، أو عالم الفكر والروح والاحساس

فالعبقرية والشبيبة خالقتان ، ومن هنا تتشابهان وتتقاربان ، فتكون الشبيبة نفحة من العبقرية ينالها كل انسان ، وتكون العبقرية نفحة من الشباب لا ينالها الا المخلدون

وما من شيخ الا تراه يتمثل بهذا البيت أو بما في معناه :

أواه لو علم الشبا ب وآه لو قدر المشيب

فهل ترى يتغير الشيخ كثيراً لو نال ما تمناه ؟ هل يعمل الشيخ كما يعمل الشيوخ العارفون لو نال قدرة الشباب ! وهل يفكر الشاب كما يفكر الشيوخ لو نال خبرة السنين ؟

أما أنهما يتغيران بعض التغيير فذلك ما لا شك فيه ، واما انهما يتغيران كما يتصوران فذلك هو الخطأ في التقدير . لان الشيخ لو ملك قدرة الشباب يعمل كما يعمل الفتى لا كما يعمل الشيخ ، وينخدع كما ينخدع الفتى لا كما ينخدع الشيخ ، ولا تبقى له تجارب مع العجز كما تبقى من الاقتدار ـ ذلك أن الشاب ينخدع لفرط الرجاء أضعاف ما ينخدع لفرط الجهل وقلة التجارب ومراس الايام

ينخدع لفرط الحيوية لا لقلة المعرفة والحنكة ، وقد صدق أرسطو فى قوله إن الرجاء هو علة الخديعة ، لان الرجل الذى لا يرجو الغنى ولا يطمع فيه ولا يشغل نفسـه بتحصيله لن يخدعه الدجال ولو مهر في الاحتيال ، ولن يجوز عليه ما يزعمه دعاة الكيمياء وكاشفو الكنوز واللاعبون بالاحلام والاوهام ولو جاز على اذكى الاذكياء

والشيخ نفسه ينخدع في حالة الرجاء والعطف كما ينخدع الفتى الصغير في مقتبل السنين فابنه يبدد ماله ويخدعه مائة مرة وهو لا يزال يعطيه ثم يعطيه ، ويعاود الرجاء فى صلاحه ولا يمل هذا الرجاء ، ولو قامت في وجهه كل تجارب الدهور ووصايا الحكماء ، وربما ضن بالدرهم الواحد على غير فنـاه لانه لا يرجوه ولا يعطف عليـه . وما تغيرت تجاربه ولا مواضيه في الحالتين ولـكنما تغير رجاؤه وعطفه فعاد الى خديعة الشباب

فمعظم الخديعة اذن من الرجاء والثقة لا من الجهل وحداثة الأيام ، ولهذا يكون العبقرى شاباً أبداً لانه يعنى باصلاح الناس وافهامهم غير ما يفهمون ، ولو نظر اليهم بغير شباب العبقرية الخالد لاستكثر عليهم جهد ساعة وتركهم كما يتركهم غيره حيث هم سادرون

يقول ستيفنسون الكاتب الانجليزى الاريب : « اذا هز الشيخ رأسه وقال للفتى الناشىء . هكذا يابنى كنت أظن حينما كنت في مثل عمرك » فليس جواباً صالحا في اعتقادهم أن يرد الفتى فيقول له : « سيدي الموقر الجليل . نعم ،وهكذا فيما أحسب سأظن انا حين اكون فى مثل عمرك ! »

لكن الواقع أن الجوابين على حد واحد من الصدق والصواب

نعم هما على حد واحد من الصواب لانك اذا قلت للشاب إن جميع الشبان والشيوخ فى ابان شبابهم يفكرون مثل تفكيره ويعتقدون مثل اعتقاده فذلك هو الدليل على انه يفكر كما ينبغى ويمشى على سنن جميع الناس

او ذلك هو الدليل على أنه مصيب من وجهة نظر الشباب ، وليس من الجائز له ان يخالف القياس . فقد يكون للفتوة صواب غير صواب الشيخوخة ، وقد يكون الجيل في عهد من عهود العمر غير جيل فى سائر العهود

وقد يلام الفتى الذي يغفل نصيحة الشيوخ كل الاغفال ولايستفيد بالتجارب الصالحة التى تجيئه من هذه الطريق . ولكن يلام منله — وأشد من لومه — ذلك الشيخ الذى يغفل دوافع الشباب كل الاغفال ويريد من الفتيان أن يعملوا فى مقتبل العمر كأنهم شيوخ

وما عذر الشيخ في هذه الحالة اذا اعتذر الشبان بجهل الفتوة ودفعة الحياة ؟

فالرجاء والحيوية الفياضة والنفس الوثابة هي صواب الشباب أو هي عبقرية الشباب : نطلبها ونغتبط بها حيثما وجدناها في الناشئة العاملين ، وقد نطلب منهم الصواب على اطلاقه كما نطلبه من سائر الاسنان والاعمار ، ولكننا لانطلبه فيهم على حساب عبقرية الشباب أى على حساب الرجاء والحيوية والهمة الوثابة الى المزيد ، فاذا لم يكن بد من هذا أو من ذاك فلندع الصواب إذن وحسبنا منهم عبقرية الشباب

عباس محمود العقاد